أمتى والوظيفة الحضارية

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

« نعم سوف أظل عربيًا » .

« وكلما ازددت توغلاً فى فهم حقيقة التراث الإنسانى ووظيفة الحضارات التاريخية الكبرى ، ازدادت قناعتى بأن هذا الانتماء العربى هو وحده المدعو لأن يؤدى الوظيفة الكبرى فى متاهات القرن الواحد والعشرين ، **نحن نعلم أن ماضى أمتنا قد أصابته الجروح وأن تاريخنا قد لقى الإهمال وأصابه التشويه ، قد آن لها هذه الأمة أن تعلن ، وقد آن لأبناء تلك الأمة أن يُنظّفوا ذلك التاريخ ، وأن يخرجوه نقيًا ناصعًا يهدى ويقود إلى الامام .**

أمتى أمة القيم .

وهى لذلك قد وُضع على عاتقها وظيفة تاريخية ، عليها أن تؤديها فى نطاق الصراع الذى تعيشه الأسرة الدولية المعاصرة ، لإنقاذ الإنسانية المعذبة ، من تمزقاتها الضيقة التى فرضتها الأحداث على مجتمعنا ، الذى نعيشه فى الربع الأخير من القرن العشرين ، علينا أن نبدأ فنزيل مجموعة من المفاهيم الخاطئة التى لم يعد هناك موضع لتقبلها ، والتى آن الأوان لكى نوضح حقيقة ما تحتويه من تشويه للخبرة التاريخية .

أول هذه الحقائق التى يتعين علينا أن نعترف بها ، هى أن كل من أرّخ للتراث الإنسانى لم يكن إلا غربيًا أو انطلق من المفاهيم[1] الغربية ، والمفاهيم السائدة فى تحليل

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد 89، فى 21 كانون ثان - فبراير- 1985 ، ص 26 وما بعدها .

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامى ، لماذا وكيف ؟ ، د. جمال عبد الهادى و د . وفاء محمد رفعت، دار الوفاء المنصورة ؛ « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » محمود محمد شاكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1998 .

تاريخنا نبعت من النظرة الأوربية[1] حيث سادتها فى خلفياتها الحقيقية ، فكرة ثابتة تدور حول جعل تاريخ وكتابة التاريخ[2] أداة من أدوات الدعاية السياسية ، فإذا أضفنا إلى ذلك تلك النعرة القومية الغربية لكان علينا أن نفهم لماذا يجب أن نعيد النظر فى كتابة التاريخ السياسى ، حيث لم يُكتب بعد تاريخ الإنسانية بقلم عربى ، لا فقط من حيث اللغة ، بل ومن حيث الفلسفة وتفسير الأحداث ، وهكذا ترسبت فى مفاهيمنا أخطاء عديدة ، البعض منها بحسن نية ، ولكن الكثير منها لا يمكن تبريره إلا من منطلق لا ينبع من الاعتبارات العلمية ، وهكذا أضحت الإنسانية المتقدمة هى فقط تلك النابعة من التقاليد الأوربية ، والتقدم السياسى هو أسلوب الحياة الديمقراطية[3] فى نموذجه الغربى القائم على فكرة التصويت ، وطقوس الإعلان عن الرأى ، بحيث لا يتجزأ أى منها عن الأخرى ، فكل مفاهيم خاطئة آن الأوان لأن نزيلها ونستبعدها من الإطار الفكرى للتعامل مع الوجود الإنسانى ، إن التقدم السياسى مستقل استقلالاً كليًا وشاملاً من حيث علاقته بالتقدم الاقتصادى ، ألم يكن المجتمع اليونانى أكثر أنواع النماذج السياسية تعبيرًا عن الديمقراطية التقليدية ، ومع ذلك هل نستطيع أن نقارن ذلك المجتمع اقتصاديًا بما يمثله المجتمع الرومانى فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد ؟ ألم يكن جميع الأنبياء أميين لا يعرفون القراءة[4] أو الكتابة؟

ومع ذلك من يستطع أن يزعم بأن هؤلاء الأنبياء وهم الذين قادوا الإنسانية لا يمثلون أية قدرة ثقافية ؟ لماذا أسلوب الحياة الديمقراطية فى نموذجية الغربى ، هو وحده علامة التقدم السياسى ؟ ولماذا نذهب بعيدًا ؟ ألم تكن الثورة الفرنسية رد فعل لفشل

---

(1) فى التاريخ فكرة ومنهاج ، سيد قطب ، دار الشروق القاهرة .

(2) حول « منهج كتابة التاريخ الإسلامى لماذا ؟ وكيف ؟ من سلسلة أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ د. جمال عبد الهادى . دار الوفاء ، المنصورة .

(3) استخدم الغرب « الديمقراطية » كآلية من آليات نظم الانتخابات ، وتعدد الأحزاب ، والفصل بين السلطات ، راجع كتاب « نحو نهضة أمة - كيف نفكر استراتيجيا » لواء . أ . ح . د. فوزى محمد طايل ، مركز الإعلام العربى ، القاهرة ، 1987 ، الفصل السابع تحت عنوان : « الدولة شر لا بد منه » ص 176 - ص 181 .

(4) فإنه لم يثبت لنا فى التاريخ أو فى القصص القرآنى أن هناك أنبياء أميين يجهلون القراءة والكتابة سوى نبينا محمد ﷺ ، فمعلوم أن شعيبًا عليه السلام كان خطيبًا مفوهًا ، ومعلوم أن سليمان وداود عليهما السلام كانا ملكين قاضيين ، ومعلوم أن يوسف عليه السلام كان « كبيرًا للوزراء » فى الأسرة السابعة عشر الفرعونية ، وهؤلاء وغيرهم ليسوا جهلاء بمعنى لا يعرفون القراءة والكتابة . والله أعلم .

الحضارة الغربية[1] ، وألم تكن الثورة الشيوعية بدورها رد فعل لفشل الثورة الفرنسية ؟[2] وهل يمكن أن نفهم كلا الثورتين سوى أنهما إعلان عن إجهاض لحقيقة المكتسبات التى قدمها الإنسان الأوربى ، خلال سبعة عشر قرنًا منذ الدعوة المسيحية ، عندما جاءت الثورتان كُلاً منهما بأسلوبها لتطرد الكنيسة من الوجود المدنى ؟

تعال معى بُنَىّ نُفَسِّرُ التاريخ فى جوهره الحقيقى ، الإنسانية عرفت ثورات ثلاث :

الأولى : تنبع من التصور الرومانى للممارسة السياسية كما صاغها شيشرون فى كتابه[3] « القوانين » ، ثورة صامتة هادئة خافتة لم يشعر بها أحد .

الثانية : الدعوة الإسلامية بمبادئها ومنجزاتها ، ضربة عنيفة أعادت بناء نظام القيم ، ووضعت دستور الإنسانية المتمدينة .

الثالثة : الثورة الفرنسية والتى لا نزال نعيش فى نتائجها .

كل من هذه الثورات الثلاث تقدم خطوة حاسمة فى تقدم الإنسانية ، وكل منها ترسم صورة متميزة ومستقلة لقدرة العقل البشرى على أن ترتفع لا فقط إلى مستوى الإعجاز ، بل وإلى التسليم بحقوق الإنسان ، ولو فى شطر منه فى نطاق التعامل الاجتماعى والسياسى .

لقد آن للمؤرخ العربى أن يرفض أو على الأقل أن يعيد تقييم ما تداولته الأقلام الغربية، حيث درجت تلك الأقلام على أن تجعل التطور الحضارى للإنسانية المتقدمة ينبع من حلقات متتابعة من الحضارة اليونانية ، فإذا بمفاهيم أفلاطون ومدركات أرسطو تتفاعل مع الخبرة الرومانية ، فتلبس ثوب القيم الكاثوليكية التى بدورها تنساب فى شرايين الجسد الأوربى ، لتدفعه تدريجيًا نحو حضارة عصر العقل والنور ، فتأتى حضارة عصر النهضة لترفع قدرة العقل البشرى على التحكم فى مصيره ، وتضفى على الإنسان الأوربى صفات ثلاث لم يقدر للإنسانية من قبل أن تعرفها : العقل ، التقدم التكنولوچى ، القدرة على المغامرة .

---

(1) « الثورة الفرنسية وروح الثورات » جوستاف لوبون ، ترجمة محمد عادل زعيتر ، مطبعة الشرق ، دمشق 1342 هـ .

(2) « ثورة أكتوبر 1917 » مصطفى كمال وفؤاد عبد الحليم ، مكتبة يوليو للترجمة والنشر والتوزيع ، القاهرة .

(3) بل وصل سوء التقدير والجهل إلى الزعم بأن الحضارة الإسلامية هى خليط من اليونانية والرومانية ، الرد فى كتاب « أوربا منذ أقدم العصور اليونان » ، وكتاب « دولة الروم » تأليف د . وفاء محمد رفعت ، د . جمال عبد الهادى ؛ دار الشروق جدة (مطابع دار الشعب القاهرة) .

وهكذا من خلال التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة تنبع تلك الحضارة التى نعيشها والتى يتقلب فى ضيائها كل وجود إنسانى معاصر .

ورغم ذلك فإن عودة إلى متابعة التاريخ ، تكشف لنا كيف أن الإنسانية فى حقيقتها لم تعرف سوى ثورات فكرية ثلاث ، وكيف أن من بين هذه الثورات الثلاث تقف الإسلامية عملاقة بقوتها ، قاطعة بما قدمته للإنسان المتمدين ، فلنتابع تلك القصة فى معالمها العامة ولنبدأ بالسؤال : ماذا قدم الإنسان المفكر قبل صياغة شيشرون لمبادئ القانون الطبيعى فى كتابه القوانين ؟

فلنترك جانبًا تلك المدركات السائدة ولنعمل العقل فى فهم حقيقة الماضى ، إن كل ما فعله أفلاطون وأرسطو لم يكن سوى محاولة للقدرة الفكرية ، على أن تكتشف حقيقة العالم دون هداية وإرشاد من جانب الإرادة العليا ، هذه المحاولة اليونانية نجحت جزئيًا وفشلت جزئيًا ، وكان نجاحها فى أنها أبرزت قوة الفكر الخلاق ، وكان فشلها فى أنها لم تستطع أن ترتفع للإمساك بتلابيب التطور ، فتخلق المجتمع القومى والأمة السياسية القادرة على أن تجمع الشعوب فى وظيفة حضارية واضحة[1] ، وهكذا نجد أفلاطون ، وكذلك أرسطو ، بينما يتحدث كل منهما فى نطاقه عن العدالة من جانب وعن حكم القانون من جانب ، فإن كليهما يعترف بأن نظام الرق[2] هو وضع طبيعى ، وبأن هناك أفرادًا ولدوا ليكونا عبيدًا[2] ، وآخرين وُلدوا ليتمتعوا بالحرية .

ومن ثم فإن قدرة الإنسان لم تستطع بعد أن ترتفع بفكرها المجرد ، وتصوراتها الذاتية لترى كيف أن هناك قسطًا من الحقيقة الإلهية فى كل وجود فردى .

جاء « شيشرون » ليلمس ذلك بإعجاز حقيقى ، فإذا به يقول كلمته المشهورة من أن «الطبيعة خلقت الجميع متساوين ، وأنها أعطت كل فرد مجموعة من الحقوق الطبيعية التى يجب أن تعلو على إرادة المشرِّع » ، فكر « شيشرون » بهذا المعنى هو فى حقيقته ثورة فكرية متكاملة ، ولكن ذهبت تلك الثورة دون صدى ، ولم تستطع أن تستجيب لها النظم القانونية ، بل وانتهى شيشرون فى محاولته اليائسة للدفاع عن قدسية النظم الجمهورية ، بأن قُتل وشُرب من دمه بالقرب من نابولى ، بل ولا يزال فقه السياسة فى التقاليد الأوربية

---

(1) تاريخ اليونان خير شاهد على ما يقول الكاتب - رحمه الله .

(2-2) جاء الإسلام ليحرر العبيد من العبودية للعباد إلى العبودية لله رب العالمين ووضع الله-عز وجل- قواعد لذلك حتى يتلاشى الرق - العبودية - ويتحرر العبيد من قبضة الأسياد بأمور متعددة منها كفارة الحنث فى اليمين المنعقدة ، عتق رقبة ، أو كاتب العبد سيده للحصول على حريته ، فيجب على السيد أن يستجيب له .

يُغطّى على تلك الثورة بغطاء من النسيان والتجهيل .

لقد كان على الإنسانية أن تنتظر أكثر من ستة قرون عقب مقتل شيشرون لتواجه أول ثورة فكرية حقيقية فجرتها الدعوة الإسلامية ، لتجعل منها منطلقًا حقيقيًا لبناء حضارة الإنسان الجديد ، ما هى خصائص تلك الثورة الفكرية ؟ لا نزال فى بداية محاولتنا للإجابة على السؤال : أين أمتى من العالم ؟ وهل نستطيع أن نجيب على مثل ذلك الاستفهام ، قبل أن نزيل تلك المجموعة من المفاهيم الخاطئة ، والمترسبة فى الوعى والمدركات التاريخية ؟

لا يستطيع مؤرخ محايد أن ينسى كيف أن الدعوة الإسلامية تضمنت عناصر خمسة لم يسبق للإنسان أن عرف[1] معناها وإن اكتشف جوهرها :

أولا : الإرادة العليا يجب أن تكون موضع احترام أيضًا فى الحياة المدنية .

ثانيًا : الرق حالة غير طبيعية يجب أن تواجه بوضع حد لها تدريجيًا .

ثالثًا : المجتمع السياسى هو قوة متراصة متضامنة .

رابعًا : الكرامة الفردية تمثل مفهومًا مستقلاً عن الأصل العنصرى بل وعن الانتماء الدينى .

خامسًا : الجهاد هو محور الوجود الإنسانى .

إن جوهر الحضارة الإسلامية هو دعوة العقل لإعمال الفكر ، وهو دعوة الإنسان لأن ينطلق بقدراته الذاتية لأن يكتشف العالم الذى يحيطه ، وعلى أن يُكتل طاقته وطاقة أقرانه نحو هدف من المثالية والسمو الأخلاقى ، حيث تختفى الأنانية ، وبحيث يسيطر على الإنسان مفهوم الجهاد فى سبيل نشر الدعوة ، الإرادة العليا تأتى فتقود الإنسان ، ولكن فى نطاق معين بحيث لا تفعل سوى أن تضع مجموعة من المبادئ العامة تسمح للفرد بأن يكتشف ذاته إنها لا تترك الفرد دون هداية ، ولكنها لا تفرض على المواطن إطارًا نظاميًا معينًا ، يكبله بقيود هو قادر على أن يتفاداها ويتجنبها ، الإرادة لا تفعل سوى أن تضع

---

(1) **أولاً** : الإرادة العليا تعنى : إرادة الله ، وقدرة الله ، وقدره لا بد أن تحترم - يعنى تطاع .

ثانيًا : الرق حالة غير طبيعية بمعنى غير مستديمة إلى يوم القيامة .

ثالثًا : المجتمع السياسى قوة متراصة متضامنة معناها لا فصل بين الدين والسياسة ، فالسياسى يشترط فيه أن يكون متدينًا ، والمتدين يشترط فيه أن يكون ملمًا بمفهوم السياسة بمعنى القيادة ، فالرسول ﷺ كان سياسيًا ، وكذلك الخلفاء والأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين .

رابعًا : الكرامة الفردية بمعنى تكريم الله لهذا الإنسان ، ومن تكريم الله للإنسان ، أن تكون مدار الأوامر الشرعية: حفظ الدين ، و حفظ النفس ، وحفظ العرض ، وحفظ المال ، وحفظ العقل .

خامسًا : الكفاح بمعنى الجهاد هو محور الوجود الإنسانى ، والجهاد بمفهومه الواسع وليس شرطًا أن يقف على السلاح .

خطوطًا عامة مهما قويت قدرة العقل والمنطق ، على أن تكتشفها فهى تقف منها ضعيفة خائرة .

كذلك فالمجتمع السياسى هو الأمة ، والأمة السياسية تعنى حقائق ثلاث : حضارة ، جماعة ، قيادة .

كليات الوجود السياسى قبل الدعوة الإسلامية لم تكن سوى فرد وجماعة ، والعلاقة بينهما لم تكن سوى علاقة تناقض وتعارض .

كذلك عقب التعاليم المسيحية ، فإن القديس « سانت أوجستين » لم يكن يستطيع أن يرى فى التعامل بين مدينة الإله ومدينة البشر سوى صدام عنيف ينتهى تارة لحساب الشيطان، وتارة أخرى لحساب الفضيلة ، حيث إن ما يكتسبه أحدهما لا بد وأن يكون على حساب الآخر . النظرة السياسية الإسلامية تجعل التعدد للكليات هو محور تصورها ، الفرد، الجماعة ، الحضارة ، القيادة ، وإذا كان الفرد هو سيد الجميع فلا وجود له إن لم يندمج فى إطار الجماعة ، أو الأمة من جانب ، وإن لم يترابط من خلال الحضارة أى قيم الممارسة أى إطار المبادئ المنزلة من جانب آخر .

وتجمع العلاقة بين جميع هذه العناصر مفهوم القيادة ، الخلافة ليست حقوقًا ولكنها التزامات تعبر عن مثاليات الجماعة - أى القيم الدينية - وتخلق الترابط بين الحياة المدنية والحياة الأخرى التى يعد نفسه لها المواطن .

هذه الثورة الفكرية[1] هى التى مكنت المجتمع العربى رغم فطرته وبدائيته أن يصبح قدرة خلاقة قادرة على أن تزلزل جميع الامبراطوريات المحيطة به ، بل وإذا بأهل تلك الامبراطوريات يقبلون طواعية على الدخول فى تعاليم الدعوة الجديدة ؛ لتحقيق أكبر معجزة فى تاريخ الإنسانية ، هنا من هذه الأرض انطلق النبت الجديد ، وأينعت الحضارة الجديدة حيث تعانقت قيم الإسلام مع وظيفة أمتى الحضارية . وظيفة العروبة السياسية ومع الفارس العربى انطلق الإشعاع الحضارى ، لا فقط بمعنى القدرة على تقديم الذات ولكن بمعنى الفيضان فى المنطقة ، وإذا بالأخصاب يقدم ثمرته التى فرضت وجودها على الإنسانية فى أكثر من موقف واحد[2] .

تبعت الثورة الفكرية الإسلامية ، والتى حملتها الحركة العربية قرابة اثنى عشر قرنًا من التطور ، مجموعة من التقلبات لم تكن إلا تعبيراً عن فشل الإنسانية فى فهمها لحقيقة

(1) يقصد الكاتب قيم الإسلام ؛ مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، دار الشروق .

(2) كتاب « الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية » أحمد بن زينى دحلان ، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر القاهرة 1968.

الوظيفة الحضارية[1] ، ثم تبعت ذلك الثورة الفرنسية ، ويعترف عمالقة الفكر الأوربى بأن هذه الثورة الفرنسية قدمت باليمين وأخذت باليسار ، إنها باسم حضارة عصر النهضة ، وتقديس العقل والحرية ، خلقت مجموعة جديدة من الأصنام ، فأعادت عبادة الدولة ، وأطلقت مفاهيم الانتماء إلى الحضارة اليونانية ، وانتهت بأن تعمق فلسفة التعصب العنصرى باسم « الحرية والإخاء والمساواة[2] » ، فالحرية حق أوربى ، والمساواة فى داخل المجتمع القومى ، وما عدا ذلك لا موضع له فى قيم الممارسة السياسية ، وإذا كانت العلاقة السياسية الجديدة قد أضحت واحدة ومطلقة ومباشرة ، وكلية وشاملة ، فهى تنتهى لا فقط بإلغاء القيم والمثاليات الأخلاقية ، بل والعودة لجعل النماذج الفكرية لأفلاطون وأرسطو هى دستور الحياة الفكرية ، إنها تلغى جميع تطورات ومكتسبات الإنسان قرابة عشرين قرنًا ، إنها تعلن فشل الحضارة الكاثوليكية فى هداية الإنسان الأوربى ، لا نريد أن نحدد فى هذا المجال الدين الذى قدمته تلك الثورة الفكرية الإسلامية ، فى هداية المجتمع الأوربى لاكتشاف ذاته وكيف أنه - حتى فى ذلك القسط المحدود من الإبداع الفكرى الخلاق ، الذى تضمنته الثورة الفرنسية - لم يستطع أن يتوصل العقل الأوربى إليه ، إلا من خلال تعاليم الحضارة الإسلامية .

الإنسانية الغربية لم يقدر لها الانطلاق والتخلص من طقوس العصور الهمجية الأولى، إلا فقط عندما قدر للتراث الكنسى أن يتعامل مع التراث الإسلامى ، فموجة الزحف الفكرى الإسلامى هى التى أحدثت التفاعلات الجديدة مع القديس « توماس الأكوينى » فإذا بمسارات فكرية مختلفة وإذا بتعديل فى كل ما له حيلة بالإطار الفكرى للتعامل .

---

(1) « حضارة العرب » جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى الحلبى وشركاه ، القاهرة 1969.

(2) الحرية والإخاء والمساواة ، هذا شعار ماسونى أوجدته الصهيونية العالمية معتمدة على اليهودية العالمية التى صاغت هذا الفكر الفلسفى من بروتوكولات حكماء صهيون .

ففى **البروتوكول الأول** يقول : [إن صيحتنا « الحرية والمساواة والإخاء » قد جلبت إلى صفوفنا فرقًا كاملة من زوايا العالم الأربع عن طريق وكلائنا المغفلين ، وقد حملت هذه الفرق ألويتنا فى نشوة . . .] ، ثم يقول : [إن تجرد كلمة الحرية جعلها قادرة على إقناع الرعاع بأن الحكومة ليست شيئًا آخر غير مدير ينوب عن المالك ، الذى هو الأمة ، وإن فى المستطاع جعلها كقفازين باليين . . .] .

سلسلة أبناء يهوذا فى الخفاء ، اليهود فى المعسكر الشرقى ، داؤد عبد العفو سُنْقرط ، دار الفرقان عمان؛ الخطر اليهودى ترجمة محمد خليفة التونسى - مكتبة دار التراث طبعة عام 1976 البروتوكول الأول ، راجع معنى كلمة الحرية ص 152 نفس المصدر .

المفاهيم الإسلامية تطرقت من خلال مسالك متعددة ، بعضها مباشرة وبعضها غير مباشرة ، القديس « توماس الأكوينى » تعلم على يد البرتوس الكبير ، الذى درس فى صقلية ونقل إلى الفيلسوف الإيطالى فلسفة كل من ابن سينا وابن رشد .

جامعة باريس عندما أنشئت ظلت أكثر من قرن تدرس الفلسفة اليونانية ، من خلال النصوص المنقولة عن فلاسفة الإسلام ، **وظلت تدرس كتب ابن سينا وابن رشد ، حتى أصاب البابا الكاثوليكى نوع من الهلع فأصدر قراره بمنع تدريس الفلاسفة المسلمين فى جامعة باريس ، وقد كانت نتيجة ذلك هجرة جماعية : أساتذة وطلبة جامعة باريس انتقلوا إلى جامعة تولوز على حدود أسبانيا ، حتى يستطيع هؤلاء العلماء أن يظلوا على تعاملهم مع تلك النصوص الإسلامية دون أن تستطيع السلطة البابوية أن تنالهم**[1] .

إن حضارة أمتى هى التى علمت العالم الأوربى معنى الوظيفة الحضارية ، ولكن هذا العالم الأوربى لم يعرف كيف يستقبل تعاليم أمتى ، إن مأساة المجتمع الأوربى الحقيقية هى أنه فى تعامله مع تراث آبائى قبل قسطًا دون الآخر . فحضارة آبائى هى مزيج متجانس من العقل والتدين ، العقل أى القدرة الفكرية الخلاقة ، والتدين أى التعاليم المنزلة من الإرادة العليا ، العقل ينطلق من التعاليم الدينية طقوسًا وترتيلات ؛ لأنها لا تتفق مع المنطق الإنسانى المجرد ، ولكنها فرضت على ذلك المنطق مجموعة من القواعد الشكلية ، جعلت منها علامة للإيمان .

العقل الأوربى فى جهالته وفى جموده إزاء تعاليم بالية متحجرة ما كان يمكن إلا أن ينحنى إجلالا لذلك التراث العربى ، أُعجب بالعقل العربى فجرده من إطاره الدينى وطور إمكانية قبول ذلك القسط العقلى بدون قيمه ومثالياته ، فكانت تلك النتيجة التى فجرتها الثورة الفرنسية لتذكرنا بقصة الغراب الذى حاول أن يقلد العصفور ، فلا هو ظل على طبيعته ، ولا هو اكتسب صفات جديدة .

ما الذى نستطيع أن نفهمه من هذه الملاحظات العامة ؟

الثورة الوحيدة التى عرفتها الإنسانية كدفعة حقيقية نحو الارتقاء الفكرى ، هى الدعوة الإسلامية ، فهل آن لنا أن نفهم كيف أن قصة التاريخ يجب أن نعيد كتابتها من منطلقات جديدة ؟

هناك صفحات غامضة فى قصة العظمة الإنسانية ، يجب أن يعاد تسجيلها ، وليس أقل هذه الصفات أهمية ما قدمته الحضارة الإسلامية لبناء مفهوم الدولة العالمية فى العصور

(1) انظر : كتاب « الحضارة العربية وأثرها فى أوربا » محمد إبراهيم الصيحى ، مكتبة الوعى العربى ، القاهرة 1984.

الوسطى .

إن البابوية الكاثوليكية وعلى يد ممثلها الفكرى وفيلسوفها السياسى « دانتى » ما كانت تستطيع أن تؤصل وظيفتها التى قادت الإنسانية الغربية ، رغم اضطراب الخطى والخروج عن التقاليد لولا البناء الإسلامى .

كذلك يجب أن نعيد تحديد وصياغة مراحل ذلك التطور لنستطيع أن نزن بميزان صحيح **حقيقة العلاقات التاريخية بين العروبة والإسلام ماذا فعلت العروبة للإسلام ؟ وماذا قدم الإسلام للعروبة** ؟ لا يمكن تصور أيهما دون الآخر ولكن هناك فوارق وحدود ، فأين نضع تلك الضوابط وكيف ؟ جميعها أسئلة يجب أن نواجهها ونحن فى مرحلة مراجعة قاسية مع الذات ، لنصل إلى تلك الشفافية التى وَحْدَها سوف تسمح للأجيال القادمة أن تسطر أروع صفحات البطولة الفكرية[1] .

ولكن مهلاً يا بُنَىّ ، **فالفكر فى حاجة فى بنائه إلى التؤدة والتأنى والمعاناة** ، وليس فقط الإيمانى والثقة ، ومع ذلك سوف أظل أصرخ : سوف أظل عربيًا .

فهل فهمت لماذا ؟ » .

(1) « العلاقة بين العروبة والإسلام » محمد عمارة ، دار الشروق القاهرة .